



عجز البيان وتتوقف الأقلام إجلالاً وتقديراً ومهابة خوفاً من عدم القدرة على إعطاء الموضوع حقه، وهذه خواطر مختصرة عليها تشير إلى أهمية هذا الموضوع الجلل، فتعظيم النبي صلى الله عليه وسلم فريضة لا يتم الإيمان إلا بها، وهو مقاييس دقيق لمعرفة إيمان المرء من عدمه، قال تعالى: **(إِنَّمَا الْحُجَّةُ لِلْعُلُومِ)** وفي الحديث المتفق عليه: **(لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالَّذِي وَلَدَهُ وَالنَّاسُ أَجْمَعُونَ).**

ومنزلة النبي صلى الله عليه وسلم في قلوب المؤمنين لا تعادلها منزلة مخلوق مهما علا شأنه وعظم قدره، فقد جعل الله لكل شيء قدرًا، ولنبينا صلى الله عليه وسلم عند ربه أعلى المنازل والمقامات، وهو كذلك عند المؤمنين.

لا يختلف على تعظيمه اثنان، لكنهم يختلفون في موجبات هذا التعظيم ولوازمه أقصد بذلك عموم المنتسبين إلى أهل القبلة، وأما أهل الإيمان الحق والمنهج القويم السائرين على خطى الصحابة والتابعين فمعالم التعظيم لديهم واضحة، والطريق إلى ذلك من المعلوم بالاضطرار، فالرسول صلى الله عليه وسلم معظم في شخصه وفي شرعيه وسيرته حياً وميتاً، فما قاله فهو عدل، وما أخبر عنه فهو صدق، وهم ممتنعون لشرعه، خاضعون له، ولا يعبدون الله إلا بما شرعه، وهذا هو مقتضى محبته، ومعنى الشهادة له بالرسالة.

تعظيمه ليست دعوى مجردة، أو مداخن وقصائد تقال في المناسبات، ولكنها عبادة لله جليلة، يظهر صدقها باتباع سنته و دراستها و التفقه فيها ونشرها والدفاع عنها، قال تعالى: **(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحِبِّنِي اللَّهُ وَيَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)** إذاً مُدعوا حب الله البرهان على صحة دعواهم هو اتباع نبيه، فكذلك مدعو محبته المقاييس لصحة الدعوى هو اتباعه باتباع سنته التي نقلها إلينا الثقات المعتمدون ودونها أهل العلم في مصنفاته بمعايير شهد العالم

بانضباطها ودقتها، ومن معالم محبته كثرة الصلاة عليه، فمن أحب شيئاً لهج بذكره، وعاش في مخيلته، فكيف بمن أرسله ربنا رحمة للعالمين؟ وأخرجنا بإذنه من الظلمات إلى النور.

نفي الله تعالى الإيمان عنمن أعرض عن التحاكم إليه، فقال تعالى (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) فكل ما جاء به هو من عند الله (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى) بل إن الله تعالى سمي سنته ذكرا، قال تعالى: (وَانْكَرُنَّ مَا يَتْلَىٰ فِي بَيْوَنَكُنْ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ) والحكمة هي السنة، وورد ذكرها في آية أخرى في قوله تعالى: (وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ).

فالسنة إذا هي من الذكر الذي وعد الله بحفظه بقوله ([إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الْذِكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ](#)).

لقد ضرب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أروع الأمثلة في الاحتفاء به في حدود الشرع، قال عروة الثقي: (والله لقد وفدت على الملوك وَوَقَدْتُ على كسرى وقيصر والنجاشي والله إن رأيت ملكاً قطٌ يعظمه أصحابه ما يعظ أصحابُ محمدَ مُحَمَّداً والله إن تَنَخَّمْ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعْتَ فِي كَفْ رَجُلٍ مِنْهُمْ فَدَلَّكَ بَهَا وَجْهَهُ وَجَلَّدَهُ وَإِذَا أَمْرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ وَإِذَا تَوَضَّأُ كَادُوا يَقْتَلُونَ عَلَىٰ وَضْوَئِهِ وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عَنْهُ وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرُ تَعْظِيمًا لَهُ)(رواه البخاري).

إن تعظيم شخص الرسول صلى الله عليه هو تعظيم بأمر الله لا يخرجه عن كونه عبداً له، فأعلى مقامات البشر هي العبودية لله، وبذلك وصفه ربه في أشرف الأحوال حين قال: ([سَبَّحَنَ الَّذِي أَسْرَى بَعْدَهُ](#)) ( وأنه لما قام عبد الله يدعوه) ( وإن كنتم في رب ما نزلنا على عبدنا) وهي غاية ما يصل إليه الإنسان، والخروج به عن هذا الطور تجاوز لما أمر الله به وغلو منهيه عنه، وهو في الحقيقة ليس تعظيمها، قال صلى الله عليه وسلم: ([لَا تَطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى](#) عيسى بن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله) أخرجه البخاري.

ومن تعظيم النبي تعظيم سنته وهديه، فإنها الطريق الوحد لمعرفة أحواله وشرعه، وهي المبينة للقرآن المخصصة لعمومه والمقيدة لمطلقه والمفسرة لمجمله، وبدونها لن يفهم القرآن، قال تعالى: ([وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْذِكْرَ لِتَبَيَّنَ لِلنَّاسِ مَا نَزَّلَ إِلَيْهِمْ](#)) فبدون سنته ستظل بعض النصوص معلقة الفهم غير مدركة المعنى، ولن نستطيع مثلاً معرفة عدد الصلوات، ولا معرفة تفاصيل أحكام الزكاة، ولا الأموال التي تجب فيها، ولا مقادير أنصبتها، أو مقدار ما يخرج منها، ناهيك عن التفاصيل الدقيقة في الأحكام والمعاملات وشتى أبواب علوم الشريعة. أهمية السنة وكونها صنو القرآن والمصدر الثاني للتشريع من الأمور المقررة عند أهل السنة والجماعة، لا يختلفون على ذلك، ولا يضربون بعضهما ببعض، بل يسلكون بهما مسلكاً واحداً في تفاصيل يعرفها أهل العلم، وإن اختلفت مناهجهم في بعض القضايا، لكن السنة معظمة عند الجميع، وهي من الوجه الواجب اتباعه قال تعالى: ([وَمَا آتَكُمُ الرَّسُولُ فَخِذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا](#)) بل طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم من طاعة الله: ([مَنْ يَطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أطَاعَ اللَّهَ](#)) وطاعته عين الهدى قال سبحانه ([وَإِنْ تَطِعُوهُ تَهْتَدُوا](#)). والمنحرفون عن السنة طوائف من المبتدة، لا صلة لهم بها، ولم يشرفو بمتابعتها، بل لم يعطوها حقها من التقدير والتعظيم، وانصرفوا عن دراستها والأخذ من معينها الصافي كلها أوجزها، ومن أسباب انصرافهم عنها أن قواعد نقلها وضوابط روایتها دقيقة وصارمة، من هنا قيل إنه لا يستغل بها إلا الفحول من الرجال، فكان عجزهم سبباً كبيراً في انصرافهم عنها، والسبب الآخر أنهم طلبوا الهدى في غير مظنته فعوقبوا بحرمانهم من هداها، قال تعالى: ([فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ](#)) ومن جهل شيئاً عاده كما قيل. فحرموا التوفيق والسداد، وبنوا دينهم على قواعد مضلة، مستقاة من أهل الكلام والفلسفة، حسبوها ديناً، وصارعوا من خلال ذلك الوجه الإلهي كتاباً وسنة بوقاحة وعجرفة، ونسبوا أنفسهم إلى الكمال والعقلانية، ورموا أتباع الوجهين بألقاب مخترعة ومنفرة أسوة بأعداء الرسل، وزين لهم الشيطان أعمالهم فضلوا وأضلوا عن سواء السبيل، واتخذ بعض المؤثرين بهم من

المتأخرین منهجاً أسوأ من مناهج أسلافهم، فأنکروا حجية السنة جملة وتفصيلاً، وسموا أنفسهم بالقرآنیین، وكثير من قواعدهم يشارکهم فيها إخوانهم المسمون بالعصرانیین والمتورین، وما شاکل ذلك من الألفاظ والألقاب التي يحاولون بها الضحك والتلبیس على عوام الناس والدهماء، أبطل الله کیدهم، ووقانا شرورهم.

مشاركات نور سوریة

المصادر: